الفصل الرابع

الوسطيّة

وهذه خصيصة أخرى من أبرز خصائص الإسلام، وهي «الوسطية» ويعبر عنها أيضاً بـ «التوازن»، ونعني بها التوسط أو التعادل بين طرفين متقابلين أو متضادين، بحيث لا ينفرد أحدهما بالتأثير، ويطرد الطرف المقابل، وبحيث لا يأخذ أحد الطرفين أكثر من حقه، ويطغى على مقابله ويحيف عليه.

مثال الأطراف المتقابلة أو المتضادة: الروحية والمادية، والفردية والجماعية، والواقعية والمثالية، والثبات والتغير، وما شابهها. ومعنى التوازن بينها: أن يفسح لكل طرف منها مجاله، ويعطى حقه «بالقسط» أو «بالقسطاس المستقيم»، بلا وكس ولا شطط، ولا غلو ولا تقصير، ولا طغيان ولا إخسار. كما أشار إلى ذلك كتاب الله بقوله: (والسماء رَفَعَها وَوَضع الميزان. ألَّا تَطْغَوا في الميزان. وأقيموا الوزن بالقِسطِ ولا تُخْسِروا الميزان)[1].

عجز الإنسان عن إنشاء نظام متوازن:

وهذا في الحقيقة أكبر من أن يقدر عليه الإنسان، بعقله المحدود، وعلمه القاصر، فضلاً عن تأثير ميوله، ونزعاته الشخصية، والأسرية والحزبية والإقليمية والعنصرية وغلبتها عليه من حيث يشعر أو لا يشعر.

ولهذا لا يخلو منهج أو نظام يصنعه بشر ـ فرد أو جماعة ـ من الإفراط أو التفريط. كما يدل على ذلك استقراء الواقع وقراءة التاريخ.

إن القادر على إعطاء كل شيء في الوجود ـ مادياً كان أو معنوياً ـ حقه

(١) الرحمن: ٧ ـ ٩.

بحساب وميزان، هو الله الذي خلق كل شيء فقدره تقديراً، وأحاط بكل شيء خبراً، وأحصى كل شيء عدداً، ووسع كل شيء رحمة وعلماً.

ولا عجب أن نرى هذا التوازن الدقيق في خلق الله، وفي أمر الله جميعاً، فهو صاحب الخلق والأمر. فظاهرة التوازن، تبدو فيما أمر الله به، وشرعه من الهدى ودين الحق، أي: في نظام الإسلام ومنهجه للحياة، كما تبدو في هذا الكون الذي أبدعته يد الله فأتقنت فيه كل شيء.

ظاهرة التوازن في الكون كله:

ننظر في هذا العالم من حولنا فنجد الليل والنهار، والظلام والنور، والحرارة والبرودة، والماء واليابس، والغازات المختلفة، كلها بقدر وميزان وحساب، لا يطغى شيء منها على مقابله، ولا يخرج عن حده المقدر له.

وكذلك الشمس والقمر والنجوم والمجموعات الكونية السابحة في فضاء الكون الفسيح، إن كلاً منها يسبح في مداره، ويدور في فلكه، دون أن يصدم غيره، أو يخرج عن دائرته. وصدق الله العظيم إذ يقول: (إنا كلَّ شيء خَلقناهُ بقَدَر)[1]، (ما ترى في خَلْق الرحمن من تفاوت)[2]، (لا الشمسُ ينبغي لها أن تُدرِك القمر، ولا الليل سابق النهار، وكل في فلك يسبحون)[3]، (الشمسُ والقمرُ بحُسبان. والنجْمُ والشجر يسجدان. والسماء رفعها ووضع الميزان)[4].

وقد لاحظ الأديب المعروف الأستاذ توفيق الحكيم هذه الظاهرة الكونية العامة: ظاهرة التوازن أو التعادل بين المتقابلات في شتى جوانب الكون والحياة. فبنى عليها نظريته في الأدب والفن والثقافة، وأطلق عليها عنوان «التعادلية».

---

(١) القمر: ٤٩.
(٢) الملك: ٣.
(٣) يس: ٤٠.
(٤) الرحمن: ٥ - ٧.

فهو يتحدث عن الأرض التي يعيش عليها الإنسان مؤكداً أن أهم صفة للأرض أنها كرة تعيش بالتوازن والتعادل بينها وبين كرة أضخم هي الشمس.

يقول: «فإذا اختل هذا التعادل ابتلعتها الشمس أو ضاعت في الفضاء. التعادل إذن هو الحقيقة الأولى لحياة الأرض.

فهل صفة التعادل هي أيضاً الحقيقة الأولى في كيان الإنسان؟

فلننظر أولاً كيف يعيش الإنسان من حيث هو كائن مادي؟ إنه يعيش طبعاً بالتنفس.

ما هو التنفس؟ هو حركة تعادل بين الشهيق والزفير.

فإذا اختل هذا التعادل، بأن طال الشهيق أكثر مما ينبغي طاغياً على الزفير، أو امتد الزفير أكثر مما ينبغي جائراً على الشهيق، وقفت حياة الإنسان. فإذا تركنا التركيب المادي إلى التركيب الروحي، وجدنا عين القانون.

فالتركيب الروحي للإنسان له هو أيضاً شهيقه وزفيره فيما يمكن أن نسميه الفكر والشعور أو بعبارة أخرى: العقل والقلب.

والحياة الروحية السليمة هي أيضاً تعادل بين الفكر والشعور.

وما يطلق عليه وصف الأمراض العقلية والعصبية ما هو إلا اختلال في هذا التعادل، إما بتضخم الشعور تضخماً يلغي إلى جانبه أو يعطل مهمة الفكر، فيرتد الإنسان طفلاً في أعوامه الأولى، وإما أن يطغى الفكر ويكبت الشعور، فترتبك أداة الإدراك في الإنسان.

فالإنسان إذن كائن متعادل مادياً وروحياً. وهو ليس وحده الذي ينطبق عليه هذا التعريف. كل الكائنات التي تحملها هذه الأرض المتعادلة هي أيضاً كلها في تركيبها تعادلاً هو سر حياتها.

فالحيوان والنبات والجماد... كلها تخضع لقانون «التعادل» في تركيبها

البيولوجي والكيميائي والطبيعي. حتى في نظر العلم الحديث الذي غير معتقدات القرن التاسع عشر، حول «المادة» وبين بنظرياته عن «المادة» و «المجال». أن ما نصفه بالمادة ليس سوى «الطاقة» مركزة تركيزاً شديداً..

كما أنه صاغ أيضاً القوانين الجديدة في مجال الجاذبية بين جزئيات المادة، والجاذبية هي أساس التعادل، لأن الجاذبية تعني وجود قوتين. والتعادل يعني المحافظة على بقاء القوتين، دون أن تتلاشى إحداهما في الأخرى»[1].

والذي لاحظه الأستاذ الحكيم في الكون الصغير: الإنسان، والكون الكبير: العالم، من ظاهرة التعادل أو التوازن بين أجزائه، من الذرة إلى المجموعة الشمسية، والتي بنى عليها مذهبه في الأدب والفن، حقيقة لا ريب فيها، قد سبق القرآن بالإرشاد إليها، والتنبيه عليها، كما ذكرنا من قبل، وبنى على ذلك فلسفته ومنهجه للحياة كلها: مادية وروحية، فردية واجتماعية. وأعلن تميز أمته بهذه الخصيصة الكبيرة: الوسطية أو التوازن.

وإلى هذه الخصيصة البارزة يشير قوله تعالى مخاطباً أمة الإسلام: (وكذلك جعلنَاكُم أمة وسطاً لتكونوا شُهداء على الناس ويكونَ الرسولُ عليكُم شهيداً)[2].

ووسطية الأمة الإسلامية إنما هي مستمدة من وسطية منهجها ونظامها، فهو منهج وسط لأمة وسط. منهج الاعتدال والتوازن الذي سلم من الإفراط والتفريط، أو من الغلو والتقصير.

مزايا الوسطية وفوائدها:

ولقد كان من حكمة الله تعالى أن اختار الوسطية أو التوازن شعاراً مميزاً لهذه الأمة التي هي آخر الأمم، ولهذه الرسالة التي ختم بها الرسالات الإلهية، وبعث بها خاتم أنبيائه رسولاً للناس جميعاً، ورحمة للعالمين.

---

(١) «التعادلية» لتوفيق الحكيم ص ١٠ - ١٢».
(٢) البقرة: ١٤٣.

الوسطية أليق بالرسالة الخالدة:

فقد يجوز في رسالة مرحلية محدودة الزمن والإطار أن تعالج بعض التطرف في قضية ما بتطرف مضاد، فإذا كان هناك مبالغة في الدعوة إلى الواقعية قوومت بمبالغة مقابلة في الدعوة إلى المثالية، وإذا كان هناك غلو في النزعة المادية، رد عليها بغلو معاكس في النزعة إلى الروحية. كما رأينا ذلك في الديانة المسيحية، وموقفها من النزعة المادية الواقعية عند اليهود والرومان. فإذا أدت الدعوة المرحلية دورها الموقوت، وحدت من الغلو، ولو بغلو مثله، كان لا بد من العودة إلى الحد الوسط، والى الصراط السوي، فتعتدل كفتا الميزان، وهذا ما جاءت به رسالة الإسلام بوصفها رسالة عالمية خالدة.

على أن في الوسطية معاني أخرى تميز منهج الإسلام وأمة الإسلام وتجعلها أهلاً للسيادة والخلود.

الوسطية تعني العدل:

(أ) فمن معاني الوسطية التي وصفت بها الأمة في الآية الكريمة ورتبت عليها شهادتها على البشرية كلها: العدل، الذي هو ضرورة لقبول شهادة الشاهد، فما لم يكن عدلاً، فإن شهادته مردودة مرفوضة. أما الشاهد العدل والحاكم العدل فهو المرضي بين كافة الناس.

وتفسير الوسط في الآية بالعدل مروي عن النبي ﷺ: فقد روى الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري أن النبي (ﷺ)، فسر الوسط هنا بالعدل [1] والعدل والتوسط والتوازن عبارات متقاربة المعنى، فالعدل في الحقيقة توسط بين الطرفين المتنازعين أو الأطراف المتنازعة دون ميل أو تحيز إلى أحدهما أو أحدها. وهو بعبارة أخرى: موازنة بين هذه الأطراف بحيث يعطي كل منها حقه دون بخس ولا جور عليه. ومن ثم قال زهير في المدح:

همُو وسط يرضى الأنام بحكمهم   إذا نزلت إحدى الليالي العظائم

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص: ١٩٠ ط الحلبي.

يصفهم بالعدل والقسط وعدم التحيز.

وقال المفسرون في قوله تعالى: (قال أوسَطُهم: ألم أقُل لكُم: لولا تُسبِّحون)[١] أي: أعدلهم[٢]. يؤكد هذا الإمام الرازي في تفسيره بقوله إن أعدل بقاع الشيء وسطه، لأن حكمه مع سائر أطرافه على سواء، وعلى اعتدال[٣].

ويقول المفسر أبو السعود: الوسط في الأصل اسم لما تستوى نسبة الجوانب إليه كمركز الدائرة، ثم استعير للخصال البشرية المحمودة، لكون تلك الخصال أوساطاً للخصال الذميمة المكتنفة بها من طرق الإفراط والتفريط[٤].

فالوسط يعني إذن العدل والاعتدال. وبعبارة أخرى: يعني التعادل والتوازن، بلا جنوح إلى الغلو ولا إلى التقصير.

الوسطية تعني الاستقامة:

(ب) والوسطية تعني كذلك: استقامة المنهج، والبعد عن الميل والانحراف. فالمنهج المستقيم، وبتعبير القرآن: (الصراط المستقيم) هو ـ كما عبر أحد المفسرين ـ الطريق السوي الواقع وسط الطرق الجائرة عن القصد إلى الجوانب، فإذا فرضنا خطوطاً كثيرة واصلة بين نقطتين متقابلتين، فالخط المستقيم إنما هو الخط الواقع في وسط تلك الخطوط المنحنية، ومن ضرورة كونه وسطاً بين الطرق الجائرة أن تكون الأمة المهدية إليه وسطاً بين الأمم السالكة إلى تلك الطرق الزائغة.[٥]

ومن هنا علم الإسلام المسلم أن يسأل الله الهداية للصراط المستقيم كل يوم ما لا يقل عن سبع عشرة مرة، هي عدد ركعات الصلوات الخمس المفروضة في اليوم والليلة. وذلك حين يقرأ فاتحة الكتاب في صلاته فيقول داعياً ربه:

---

(١) القلم: ٢٨.
(٢) انظر: تفسير «الفخر الرازي» ج ٤ ص: ١٠٨ - ١٠٩ المطبعة المصرية ١٣٥٤/ ١٩٣٥.
(٣) المصدر السابق.
(٤) تفسير أبي السعود: ج ١ ص: ١٢٣ ط صبيح.
(٥) المصدر نفسه.

(اهدنا الصراط المستقيم. صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين)[١].

وقد مثل النبي - ﷺ -، للمغضوب عليهم باليهود، وللضالين بالنصارى. ولا شك أن كلاً من اليهود والنصارى يمثلون الإفراط والتفريط في كثير من القضايا. فاليهود قتلوا الأنبياء، والنصارى ألهوهم. اليهود أسرفوا في التحريم، والنصارى أسرفوا في الإباحة حتى قالوا: كل شيء طيب للطيبين... اليهود غلوا في الجانب المادي، والنصارى قصروا فيه، اليهود تطرفوا في اعتبار الرسوم في الشعائر والتعبدات، والنصارى تطرفوا في إلغائها.

والإسلام يعلم المسلم أن يحذر من تطرف كلا الفريقين، وأن يلتزم المنهج الوسط، أو المستقيم، الذي سار عليه كل من رضي الله عنهم، وأنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

الوسطية دليل الخيرية:

(جـ) والوسطية كذلك دليل الخيرية، ومظهر الفضل والتمييز، في الماديات والمعنويات. ففي الأمور المادية نرى أفضل حبات العقد واسطته، ونرى رئيس القوم في الوسط والأتباع من حوله. وفي الأمور المعنوية نجد التوسط دائماً خيراً من التطرف.

ولهذا قال العرب في حكمهم: خير الأمور الوسط. وقال أرسطو: الفضيلة وسط بين رذيلتين. ومن هنا قال ابن كثير في قوله تعالى: (أمة وسطاً)[٢] الوسط ههنا: الخيار والأجود. كما يقال: قريش أوسط العرب نسباً وداراً، أي خيرها «وكان رسول الله - ﷺ - وسطاً في قومه، أي: أشرفهم نسباً. ومنه: الصلاة الوسطى، التي هي أفضل الصلوات[٣].

---

(١) الفاتحة: ٦، ٧.

(٢) تفسير ابن كثير ١ / ١٩٠.

(٣) المصدر نفسه.

الوسطية تمثل الأمان:

(د) والوسطية تمثل منطقة الأمان، والبعد عن الخطر، فالأطراف عادة تتعرض للخطر والفساد، بخلاف الوسط، فهو محمي ومحروس بما حوله، وفي هذا قال الشاعر:

كانت هي الوسط المحمي فاكتنف بها الحوادث حتى أصبحت طـرفـاً

وكذلك شأن النظام الوسط، والأمة الوسط.

الوسطية دليل القوة:

(هـ) والوسطية دليل القوة، فالوسط هو مركز القوة. ألا ترى الشباب الذي يمثل مرحلة القوة وسطاً بين ضعف الطفولة وضعف الشيخوخة؟! والشمس في وسط النهار أقوى منها في أول النهار وآخره؟!

الوسطية مركز الوحدة:

(و) والوسطية تمثل مركز الوحدة ونقطة التلاقي.. فعلى حين تتعدد الأطراف تعدداً قد لا يتناهى، يبقى الوسط واحداً، يمكن لكل الأطراف أن تلتقي عنده. فهو المنتصف، وهو المركز. وهذا واضح في الجانب المادي، والجانب الفكري والمعنوي على سواء.

ومركز الدائرة في وسطها يمكن لكل الخطوط الآتية من المحيط أن تلتقي عنده. والفكرة الوسطى يمكن أن تلتقي بها الأفكار المتطرفة في نقطة ما، هي نقطة التوازن والاعتدال. كما أن التعدد والاختلاف الفكري يكون حتمياً كلما وجد التطرف، وتكون حدته وشدته بقدر حدة هذا التطرف. أما التوسط والاعتدال فهو طريق الوحدة الفكرية ومركزها ومنبعها. ولهذا تثير المذاهب والأفكار المتطرفة من الفرقة والخلافة بين أبناء الأمة الواحدة ما لا تثيره المذاهب المعتدلة في العادة.

مظاهر الوسطية في الإسلام:

وإذا كان للوسطية كل هذه المزايا ، فلا عجب أن تتجلى واضحة في كل جوانب الإسلام، نظرية وعملية، تربوية وتشريعية.

فالإسلام وسط في الاعتقاد والتصور. وسط في التعبد والتنسك. وسط في الأخلاق والآداب. وسط في التشريع والنظام.

وسطية الإسلام في الاعتقاد:

(أ) فهو وسط في الاعتقاد بين الخرافيين الذين يسرفون في الاعتقاد، فيصدقون بكل شيء، ويؤمنون بغير برهان.. وبين الماديين الذين ينكرون كل ما وراء الحس ولا يستمعون لصوت الفطرة، ولا نداء العقل، ولا صراخ المعجزة.

فالإسلام يدعو إلى الاعتقاد والإيمان، ولكن بما قام عليه الدليل القطعي والبرهان اليقيني، وما عدا ذلك يرفضه ويعده من الأوهام، وشعاره دائماً: (قُل هاتوا بُرهانَكُم إن كنتم صادقين)[1].

(ب) وسط بين الملاحدة الذين لا يؤمنون بإله قط، خانقين صوت الفطرة في صدورهم، متحدين منطق العقل في رؤوسهم.. وبين الذين يعددون الآلهة حتى عبدوا الأغنام والأبقار، وألهوا الأوثان والأحجار!

فالإسلام يدعو إلى الإيمان بإله واحد لا شريك له، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، وكل من عداه وما عداه مخلوقات لا تملك ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً. فتأليهها شرك وظلم وضلال مبين: (ومن أضل ممَّن يدعوا من دون الله من لا يَستَجِيبُ له إلى يوم القيامة وهم عن دعائِهم غافلون)[2].

(جـ) وهو وسط بين الذين يعتبرون الكون هو الوجود الحق وحده، وما

(١) البقرة: ١١١.
(٢) الأحقاف: ٥.

عداه ـ مما لا تراه العين ولا تلمسه اليد ـ خرافة ووهم.. وبين الذين يعتبرون الكون وهماً لا حقيقة له، وسراباً بقيعة يحسبه الظمآن ماء، حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً.

فالإسلام يعتبر وجود الكون حقيقة لا ريب فيها. ولكنه يعبر من هذه الحقيقة الى حقيقة أكبر منها وهي: سن كونه ونظمه ودبر أمره. وهو الله تعالى: (إنَّ في خَلْق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب. الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنُوبهم ويتفكرون في خلق السماوات والأرض ربَّنا ما خلقت هذا باطلاً، سُبحانك)[1].

(د) وهو وسط بين الذين يؤلهون الإنسان، ويضفون عليه خصائص الربوبية ويعتبرونه إله نفسه، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، وبين الذين جعلوه أسير جبرية اقتصادية أو اجتماعية أو دينية، فهو كريشة في مهب الريح، أو دمية يحرك خيوطها المجتمع، أو الاقتصاد، أو القدر.

فالإنسان في نظر الإسلام مخلوق مكلف مسؤول، سيد في الكون، عبد لله، قادر على تغيير ما حوله، بقدر ما يغير ما بنفسه: (إن الله لا يُغَيّر ما بقوم حتى يُغيِّروا ما بأنفُسِهم)[2].

(هـ) وهو وسط بين الذين يقدسون الأنبياء حتى رفعوهم إلى مرتبة الالوهية أو البنوة للإله.. وبين الذين كذبوهم واتهموهم، وصبوا عليهم كؤوس العذاب.

فالأنبياء بشر مثلنا، يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق، ولكثير منهم أزواج وذرية، وكل ما بينهم وبين غيرهم من فرق، أن الله من عليهم بالوحي، وأيدهم بالمعجزات: (قالت لهم رُسُلُهم إن نحن إلا بشر مثلُكُم ولكن الله يَمُنُّ على من يشاء من عباده، وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا بإذن الله، وعلى الله فليتوكل المؤمنون)[3].

---

(١) آل عمران: ١٩٠، ١٩١.

(٢) الرعد: ١١.

(٣) إبراهيم: ١١.

(و) وهو وسط بين الذين يؤمنون بالعقل وحده مصدراً لمعرفة حقائق الوجود وبين الذين لا يؤمنون إلا بالوحي والإلهام، ولا يعترفون للعقل بدور في نفي أو إثبات.

فالإسلام يؤمن بالعقل، ويدعوه للنظر والتفكير، وينكر عليه الجمود والتقليد ويخاطبه بالأوامر والنواهي، ويعتمد عليه في إثبات أعظم حقيقتين في الوجود، وهما وجود الله تعالى(١) وصدق دعوى النبوة، ولكنه يؤمن بالوحي، مكملاً للعقل، ومعيناً له فيما تضل فيه العقول وتختلف، وما تغلب عليه الأهواء، وهادياً له إلى ما ليس من اختصاصه ولا هو في مقدوره، من الغيبيات والسمعيات وطرائق التعبد لله تعالى.

وسطية الإسلام في العبادات والشعائر:

والإسلام وسط في عباداته، وشعائره بين الأديان، والنحل التي ألغت الجانب «الرباني» - جانب العبادة والتنسك والتأله - من فلسفتها وواجباتها، كالبوذية التي اقتصرت فروضها على الجانب الأخلاقي الإنساني وحده.. وبين الأديان والنحل التي طلبت من أتباعها التفرغ للعبادة والانقطاع عن الحياة والانتاج، كالرهبانية المسيحية.

فالإسلام يكلف المسلم أداء شعائر محدودة في اليوم كالصلاة، أو في السنة كالصوم، أو في العمر مرة كالحج، ليظل دائماً موصولاً بالله، غير مقطوع عن رضاه، ثم يطلقه بعد ذلك ساعياً منتجاً، يمشي في مناكب الأرض، ويأكل من رزق الله.

ولعل أوضح دليل نذكره هنا: الآيات الآمرة بصلاة الجمعة:

(يا أيها الذين آمنوا إذا نُوديَ للصلاة من يوم الجُمعةِ فاسْعَوا إلى ذكر الله وذروا البيْعَ، ذلكُم خير لكم إن كنتم تعلمون، فإذا قُضيَت الصلاة

---

(١) هذه الحقيقة الأولى والكبرى لم تثبت بطريق الوحي إلى رسول، فإن الوحي والرسالة فرع عن ثبوت الموحي. والمرسل وهو الله، وإنما ثبتت هذه الحقيقة بضرورة العقل، وغريزة الفطرة معاً.

فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله، واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون)[١].

فهذا هو شأن المسلم مع الدين والحياة حتى في يوم الجمعة: بيع وعمل للدنيا قبل الصلاة، ثم سعي إلى ذكر الله وإلى الصلاة، وترك للبيع والشراء وما أشبهه من مشاغل الحياة. ثم انتشار في الأرض وابتغاء الرزق من جديد بعد انقضاء الصلاة، مع عدم الغفلة عن ذكر الله كثيراً في كل حال. فهو اساس الفلاح والنجاح.

وسطية الإسلام في الأخلاق:

(أ) والإسلام وسط في الأخلاق بين غلاة المثاليين الذين تخيلوا الإنسان ملاكاً أو شبه ملاك، فوضعوا له من القيم والآداب ما لا يمكن له، وبين غلاة الواقعيين، الذين حسبوه حيواناً أو كالحيوان، فأرادوا له من السلوك ما لا يليق به، فأولئك أحسنوا الظن بالفطرة الإنسانية فاعتبروها خيراً محضاً، وهؤلاء أساؤوا بها الظن، فعدوها شراً خالصاً. وكانت نظرة الإسلام وسطاً بين أولئك وهؤلاء.

فالإنسان في نظر الإسلام مخلوق مركب فيه العقل، وفيه الشهوة، فيه غريزة الحيوان، وروحانية الملاك، قد هدي للنجدين، وتهيأ بفطرته لسلوك السبيلين، إما شاكراً وإما كفوراً. فيه استعداد للفجور استعداده للتقوى. ومهمته جهاد نفسه ورياضتها حتى تتزكى: (ونفس وما سواها. فألهمها فُجورها وتقواها. قد أفلح من زكاها. وقد خاب من دساها)[٢].

(ب) وهو كذلك وسط في نظرته إلى حقيقة الإنسان بين النحل والمذاهب التي تقوم على اعتباره روحاً علوياً سُجن في جسد أرضي، ولا يصفو هذا الروح ولا يسمو إلا بتعذيب هذا الجسد وحرمانه، كالبرهمية وغيرها. وبين المذاهب المادية التي تعتبر الإنسان جسداً محضاً، وكياناً مادياً

(١) الجمعة: ٩، ١٠.
(٢) الشمس: ٧-١٠.

صرفاً لا يسكنه روح علوي، ولا يختص بأي نغمة سماوية.

أما الإنسان في الإسلام فهو كيان روحي ومادي، كما يشير إلى ذلك خلق الإنسان الأول آدم عليه السلام، فقد خلقه الله من تراب أو طين أو صلصال، وكلها تومىء إلى الأصل المادي لبدن الإنسان، ثم أودع الله في هذه المادة شيئاً آخر، هو سر تميز الإنسان، ومنبع كرامته، وفيه يقول للملائكة: (فإذا سويتُه ونفختُ فيه من روحي فقعوا له ساجدين)[1].

ومادام الإنسان مؤلفاً من الروح والبدن، فإن لروحه عليه حقاً، ولبدنه عليه حقاً.

(جـ) وهو وسط في النظرة إلى الحياة بين الذين أنكروا الآخرة، واعتبروا هذه الحياة الدنيا هي كل شيء، هي البداية والنهاية: (وقالوا إن هي إلا حياتنا الدّنيا وما نَحْنُ بمبعوثين)[2] وبهذا غرقوا في الشهوات. وعَبَّدوا أنفسهم للماديات، ولم يعرفوا لهم هدفاً يركضون وراءه، غير المنافع الفردية الدنيوية العاجلة. وهذا شأن الماديين في كل زمان ومكان. وبين الذين رفضوا هذه الحياة، وألغوا اعتبارها من وجودهم واعتبروها شراً يجب مقاومته والفرار منه، فحرموا على أنفسهم طيباتها: وزينتها، وفرضوا عليها العزلة عن أهلها، والانقطاع عن عمارتها والإنتاج لها.

فالإسلام يعتبر الحياتين، ويجمع بين الحسنيين، ويجعل الدنيا مزرعة للآخرة، ويرى العمل في عمارتها عبادة لله، وأداء لرسالة الإنسان، وينكر على غلاة المتدينين تحريم الزينة والطيبات، كما ينكر على الآخرين انهماكهم في الترف والشهوات. يقول الله في كتابه: (والذين كفروا يتمتَّعُون ويأكُلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم)[3]. ويقول تعالى: (يا بَني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد، وكلوا واشربوا ولا تسرفوا، إنه لا يُحب المسرفين. قل

---

(١) الحجر: ٢٩.
(٢) الأنعام: ٢٩.
(٣) محمد: ١٢.

من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق)[1] ويذكر القرآن أن السعادة والحياة الطيبة في الدنيا من مثوبة الله لعباده المؤمنين فيقول: (فآتاهم الله ثواب الدنيا وحُسْنَ ثواب الآخرة، والله يحب المحسنين)[2] ويعلم المؤمنين هذا الدعاء الجامع لحسنتي الدارين: (ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقِنا عذاب النار)[3].

التوازن بين الروحية والمادية:

ولا عجب أن نجد من أبرز مظاهر الوسطية أو التوازن في رسالة الإسلام: التوازن بين الروحية والمادية ـ أو بعبارة أخرى ـ بين الدين والدنيا.

(أ) لقد وجدت في التاريخ جماعات وأفراد، كل همهم إشباع الجانب المادي في الإنسان، وعمارة الجانب المادي في الحياة، دون التفات إلى الجوانب الأخرى: (وقالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا، وما نحن بمبعوثين)[4]

وهذه النزعة المغالية في المادية وفي قيمة الدنيا، جديرة بأن تولد الترف والطغيان، والتكالب على متاع الحياة، والغرور والاستكبار عند النعمة، واليأس والقنوط عند الشدة.

نرى ذلك واضحاً فيما قصه الله علينا من مصارع الأفراد، والأقوام الذين عاشوا للدنيا وحدها، ولم يلقوا للدين بالاً، ولا للآخرة حساباً، ولا للروح مكاناً.

فهذا صاحب الجنتين يفخر على صاحبه، منتفخاً بثروته، مختالاً بجنته، قائلاً: (أنا أكثر منك مالاً وأعز نفراً. ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبيد هذه أبداً. وما أظن الساعة قائمة)[5].

---

(١) الأعراف: ٣١، ٣٢.
(٢) آل عمران: ١٤٨.
(٣) البقرة: ٢٠١.
(٤) الأنعام: ٢٩.
(٥) الكهف: ٣٤-٣٦.

فأرسل الله على جنته حسباناً من السماء فأصبحت صعيداً زلقا. وأصبح ماؤها غورا.

وهذا قارون، الذي آتاه الله من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة. بغى على قومه، واغتر بماله، وعزا الفضل فيه إلى نفسه قال: (إنما أوتيته على علمٍ عندي)(١) فخسف الله به وبداره الأرض.

وهذا فرعون الذي قال: (أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي، أفلا تُبصِرُون؟)(٢).

وغير هؤلاء من الأمم التي أترفت في الحياة الدنيا فقتلها الترف، ودمرها التحلل، وحقت عليها كلمة العذاب، وحرمت نصر الله وعونه: (حتى إذا أخذنا مُترَفِيهم بالعذاب، إذا هم يجأرون. لا تجأروا اليوم، إنكم منا لا تُنصرون. قد كانت آياتي تتلى عليكم فكُنتم على أعقابكم تنكصون)(٣) (وكم قَصمنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوماً آخرين. فلما أحَسّوا بأسنا إذا هم منها يركضون. لا تركُضُوا وارجعوا إلى ما أترفتم فيه ومساكنكم لعلَّكُم تُسئلُون)(٤).

(ب) وفي الطرف المقابل لهذه النزعة وأصحابها، وجد آخرون من الأفراد والجماعات، نظروا إلى الدنيا نظرة احتقار وعداوة. فحرموا على أنفسهم طيبات الحياة وزينتها، وعطلوا قواهم من عمارتها، والإسهاب في تنميتها وترقيتها واكتشاف ما أودع الله فيها.

عِرف ذلك في برهمية الهند، ومانوية فارس، وبدا ذلك بوضوح وجلاء في نظام الرهبانية الذي ابتدعه النصارى، فعزلوا به جماهير غفيرة عن الحياة، والتمتع بها، والإنتاج فيها.

وأصبح الشائع في مفهوم الناس عن الدين والتدين الحق، هو الانقطاع عن

(١) القصص: ٧٨.
(٢) الزخرف: ٥١.
(٣) المؤمنون: ٦٤-٦٦.
(٤) الأنبياء: ١١-١٣.

العالم، والتفرغ للعبادة، وأن المتدين الحق هو الذي يتبطل فلا يعمل، ويتقشف فلا يتمتع، ويتبتل فلا يتزوج، ويتعبد فلا يفتر، ليله قائم، ونهاره صائم، يده في الدنيا صفر، وحظه من الحياة خبز الشعير، ولبس المرقع، واتخاذ الفلوات داراً!.

(جـ) وبين هاتين النزعتين قام الإسلام، يدعو إلى التوازن والاعتدال فصحح مفهوم الناس عن حقيقة الإنسان، وعن حقيقة الحياة.

فالإنسان مخلوق مزدوج الطبيعة، يقوم كيانه على قبضة من طين الأرض، ونفخة من روح الله، ففيه عنصر أرضي، يتمثل في جسمه الذي يطلب حظه مما خرج من الأرض من متاع وزينة. وفيه عنصر سماوي يتمثل في روحه التي تتطلع إلى هداها مما نزل من السماء.

وقد أشار القرآن إلى هذه الطبيعة المزدوجة في خلق الإنسان الأول: آدم أبي البشر، فقال تعالى: (وإذ قال ربُّك للملائكة إني خالِق بشراً من طين. فإذا سويتُه ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين)[1].

وأشار إلى هذه الطبيعة نفسها في خلق ذرية آدم حيث قال: (وبدأ خلْق الإنسان من طين. ثم جعل نسلهُ من سلالة من ماء مهين. ثم سواه ونفخ فيه من روحه، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون)[2].

وكان من حكمة الله سبحانه أن خلق الإنسان على هذه الطبيعة، لأنها تتفق مع الرسالة التي كلف القيام بها، وهي الخلافة في الأرض.

فهو ـ بعنصره الطيني المادي ـ قادر على أن يسعى في الأرض ويعمرها ويحسنها، ويكتشف ما أودع الله فيها من كنوز ونعم، ويسخر قواها المتنوعة بإذن الله ـ لمنفعته والنهوض بمهمته، فالجسم المادي في الإنسان ليس إذن شراً ولا لعنة، ولو كان الإنسان روحاً خالصاً كالملائكة ما وجدت لديه الدوافع التي تحفزه على استخدام المادة والمشي في مناكب الأرض والكشف عن

(١) سورة ص: ٧١، ٧٢.
(٢) السجدة: ٧-٩.

مكنونها، والعمل على تعميرها.

وهو - بعنصره الروحي السماوي - مهيأ للتحليق في أفق أعلى، والتطلع إلى عالم أرقى، وإلى حياة هي خير وأبقى. وبهذا يسخر المادة ولا تسخره. ويستخدم ما على الأرض من ثروات وخيرات دون أن تستخدمه هي وتستعبده.

إن الأرض وما عليها خُلِقت له أما هو فقد خُلِقَ لله: لعبادته ومعرفته وإحسان الصلة به.

والحياة ليست سجناً عُوقِب الإنسان به، ولا عبثاً فُرض عليه حمله إنما هي نعمة يجب أن تُشكر، ورسالة يجب أن تُؤدى، ومزرعة لحياة أخرى هي خير وأبقى، يجب ألا تشغل عنها، ولا تحيف عليها.

والقرآن الكريم يدعو إلى العمل للحياة، والضرب في الأرض، والمشي في مناكبها والاستمتاع بطيباتها، بجوار الحث على الاستعداد للآخرة، والتزود ليوم الحساب، وذلك بالإيمان والعبادة وحسن الصلة بالله، ودوام ذكره الذي تطمئن به القلوب.

يقول سبحانه: (يا أيها الذين آمنوا لا تُحرِّموا طيبات ما أحل اللهُ لكُم ولا تعتدوا، إن الله لا يُحب المعتدين. وكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً، واتقوا الله الذي أنتم به مُؤمِنُون)[1].

ويقول تعالى: (هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً، فامشوا في مناكبها وكُلُوا من رزقه، وإليه النشور)[2]. ويقول: (فإذا قُضِيَت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله، واذكروا الله كثيراً لعلكم تُفلِحُون)[3]. ويقول: (وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة، ولا تنس نصيبك من الدنيا.

---

(١) المائدة: ٨٧، ٨٨.
(٢) الملك: ١٥.
(٣) الجمعة: ١٠.

وأحسن كما أحسن الله إليك، ولا تبغِ الفسادَ في الأرض. إن الله لا يَحب المفسدين)[١].

والرسول ﷺ كان يأكل من طيبات هذه الحياة ولا يحرمها على نفسه، ولكنه لم يجعلها شغل نفسه، ولا محور تفكيره، وكان من دعائه: «اللهم لا تجعل الدنيا أكبر همنا، ولا مبلغ علمنا»[٢].

وإنما كان يعطيها حقها، وللآخرة حقها، بالقسطاس المستقيم، وكان من دعائه: «اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي، وأصلح لي آخرتي التي إليها معادي، واجعل الحياة زيادة لي في كل خير، واجعل الموت راحة لي من كل شر»[٣].

فهذا الدعاء النبوي المأثور، يبين موقف المسلم من الدين والدنيا والآخرة، إنه يطلبها جميعاً، ويسأل الله أن يصلحها له جميعاً، الدين والدنيا والآخرة، إذ لا غنى له عن واحد منها، فالدين عصمة أمره، وملاك حياته، والدنيا فيها معاشه، ومتاعه إلى حين، والآخرة إليها معاده ومصيره.

وهو مثل الدعاء القرآني الموجز الذي كان ﷺ كثيراً ما يدعو به: (ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقِنَا عذاب النار)[٤].

وكان ﷺ حريصاً على توجيه أصحابه إلى التوازن المقسط بين دينهم ودنياهم، وبين حظ أنفسهم وحق ربهم، بين متعة البدن ونعيم الروح، فإذا رأى في بعضهم غلواً في جانب، قومه بالحكمة ورده إلى سواء الصراط.

ولما رأى في بعض أصحابه إفراطاً في التعبد والصيام والقيام، على حساب جسمه وأهله ومجتمعه، قال له: إن لبدنك عليك حقاً، وإن لزوجك عليك حقاً، وإن لزورك - يعني زوارك وضيوفك - عليك حقاً، فأعط كل ذي حق حقه»[٥].

---

(١) القصص: ٧٧.

(٢) رواه الترمذي عن ابن عمر وحسنه وأقره النووي، ورواه النسائي أيضاً والحاكم وصححه على شرط البخاري.

(٣) رواه مسلم.

(٤) البقرة: ٢٠١.

(٥) رواه البخاري.

وقال للجماعة الذين التزم أحدهم أن يصوم فلا يفطر، والتزم الثاني أن يقوم فلا ينام، والتزم الثالث أن يعتزل النساء فلا يتزوج أبداً ـ قال لهم: «أما إني أخشاكم لله وأتقاكم له، ولكني أصوم وأفطر، وأقوم وأنام، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني»[1].

وحين أقبل أبو عبيدة بمال من البحرين، وأحس بعض الصحابة بقدومه فهرولوا مسرعين، ينتظرون أن ينالهم شيء منه، وبدا منهم الحرص على هذا المتاع الأدنى، انتهزها النبي - ﷺ - فرصة، ليحذرهم من فتنة الدنيا وغرورها، والحرص على زخارفها، فخطب فيهم قائلاً: «أبشروا وأملوا فوالله ما الفقر أخشى عليكم ولكن أخشى أن تبسط عليكم الدنيا، كما بسطت على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، فتهلككم كما أهلكتهم»[2].

وهكذا تعلم الصحابة أن يوازنوا بين مطالب دنياهم وآخرتهم، وأن يعملوا للدنيا كأحسن ما يعمل أهل الدنيا، ويعملوا للآخرة كأحسن ما يعمل أهل الآخرة، يقول القائد الفاتح عمرو بن العاص رضي الله عنه: «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً. واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً».

ولم يشعروا بتعارض قط بين عملهم لدينهم، وعملهم لدنياهم، بل شعروا بالوحدة والانسجام والامتزاج، كانت شعائرهم وواجباتهم الدينية، تعطيهم زاداً وشخصية قوية، يواصلون بها الكفاح لدنياهم. وكانت أعمالهم الدنيوية، عوناً لهم على أداء فرائضهم الدينية... كانوا يعتقدون أنهم ـ في عبادتهم ومساجدهم ـ ليسوا مقطوعين عن الدنيا، كما أنهم ـ في مزارعهم ومتاجرهم وحرفهم ـ غير بعيدين عن الدين، فأعمالهم هذه عبادة إذا صحت فيها النية، والتزمت حدود الله.

وسطية الإسلام في التشريع:

والإسلام وسط كذلك في تشريعه ونظامه القانوني والاجتماعي.

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه البخاري.

فهو وسط في التحليل والتحريم بين اليهودية التي أسرفت في التحريم، وكثرت فيها المحرمات، مما حرمه إسرائيل على نفسه، ومما حرمه الله على اليهود، جزاء بغيهم وظلمهم كما قال الله تعالى: (فبظلم من الذين هادوا حرَّمنا عليهم طيبات أُحلَّت لهم، وبصدهم عن سبيل الله كثيراً، وأخذِهِم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل)[1].

وبين المسيحية التي أسرفت في الإباحة، حتى أحلت الأشياء المنصوص على تحريمها في التوراة، مع أن الإنجيل يعلن أن المسيح لم يجيء لينقض ناموس التوراة، بل ليكمله. ومع هذا أعلن رجال المسيحية أن كل شيء طاهر للطاهرين!

فالإسلام قد أحل وحرم، ولكنه لم يجعل التحليل ولا التحريم من حق بشر، بل من حق الله وحده، ولم يحرم إلا الخبيث الضار، كما لم يحل إلا الطيب النافع. ولهذا كان من أوصاف الرسول عند أهل الكتاب أنه: (يأمرهم بالمعروف وينهَاهم عن المنكر ويُحِلُّ لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضعُ عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم)[2].

والتشريع الإسلامي وسط في شؤون الأسرة، كما هو وسط في شؤونه كلها. وسط بين الذين شرعوا تعدد الزوجات بغير عدد ولا قيد، وبين الذين رفضوه وأنكروه ولو اقتضته المصلحة وفرضته الضرورة والحاجة.

فقد شرع لإسلام هذا الزواج بشرط القدرة على الإحصان والإنفاق، والثقة بالعدل بين الزوجتين، فإن خاف ألا يعدل، لزمه الاقتصار على واحدة. كما قال تعالى: (فإن خفتم ألا تعدِلوا فواحدة)[3].

وهو وسط في الطلاق بين الذين حرموا الطلاق، لأي سبب كان، ولو استحالت الحياة الزوجية إلى جحيم لا يطاق، كالكاثوليك، وقريب منهم الذين

---

(١) النساء: ١٦٠، ١٦١.
(٢) الأعراف: ١٥٧.
(٣) النساء: ٣.

حرموه إلا لعلة الزنا والخيانة الزوجية كالأرثوذوكس. وبين الذين أرخوا العنان في أمر الطلاق، فلم يقيدوه بقيد، أو شرط، فمن طلب الطلاق من امرأة أو رجل كان أمره بيده، وبذلك سهل هدم الحياة الزوجية بأوهى سبب، وأصبح هذا الميثاق الغليظ أوهى من بيت العنكبوت.

إنما شرع الإسلام الطلاق، عندما تفشل كل وسائل العلاج الأخرى، ولا يجدي تحكيم ولا إصلاح، ومع هذا فهو أبغض الحلال إلى الله، ويستطيع المطلق مرة ومرة أن يراجع مطلقته ويعيدها إلى حظيرة الزوجية من جديد. كما قال تعالى: (الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان)[1].

والإسلام وسط في تشريعه ونظامه الاجتماعي بين «الليبراليين» أو «الرأسماليين»، الذين يدللون الفرد على حسب المجتمع، بكثرة ما يعطى له من حقوق يطالب بها، وقلة ما يفرض عليه من واجبات يُسئل عنها. فهو دائماً يقول: لي، وقلما يقول: عليَّ. وبين الماركسيين والجماعيين الذين يضخمون دور المجتمع، بالضغط على الفرد، والتقليل من حقوقه، والحجر على حريته، ومصادرة نوازعه الذاتية.

التوازن بين الفردية والجماعية:

وفي النظام الإسلامي تلتقي الفردية والجماعية في صورة متزنة رائعة، تتوازن فيها حرية الفرد ومصلحة الجماعة، وتتكافأ فيها الحقوق والواجبات، وتتوزع فيها المغانم والتبعات بالقسطاس المستقيم.

لقد تخبطت الفلسفات والمذاهب من قديم، في قضية الفرد والمجتمع والعلاقة بينهما: هل الفرد هو الأصل والمجتمع طارىء مفروض عليه، لأن المجتمع إنما يتكون من الأفراد؟ أم المجتمع هو الأساس والفرد نافلة، لأن الفرد بدون المجتمع مادة غفل (خام)، والمجتمع هو الذي يشكلها ويعطيها صورتها، فالمجتمع هو الذي يورث الفرد ثقافته وآدابه وعاداته وغير ذلك؟

---

(١) البقرة: ٢٢٩.

من الناس من جنح إلى هذا، ومنهم من مال إلى ذلك، وأحتدّ الخلاف بين الفلاسفة والمشرعين والاجتماعيين والاقتصاديين والسياسيين في هذه القضية، فلم يصلوا إلى نتيجة.

كان (أرسطو) يؤمن بفردية الإنسان، ويحبذ النظام الذي يقوم على الفردية، وكان أستاذه (أفلاطون) يؤمن بالجماعية ـ الاشتراكية ـ كما يتضح ذلك في كتابه (الجمهورية).

وبهذا لم تستطع الفلسفة الإغريقية ـ أشهر الفلسفات البشرية القديمة ـ أن تحل هذه العقدة، وأن تخرج الناس من هذه الحيرة، كشأن الفلسفة دائماً في كل القضايا الكبيرة، تعطي الرأي وضده، ولا يكاد أقطابها يتفقون على حقيقة، حتى قال أحد أساتذتها: الفلسفة لا رأي لها!!

وفي فارس ظهر مذهبان متناقضان: أحدهما فردي يدعو إلى التقشف والزهد، والامتناع عن الزواج، ليعجل الإنسان بفناء العالم، الذي يعج بالشرور والآلام، وهذا هو مذهب «ماني» ويمثل أقصى الفردية.

وقام في مقابله مذهب آخر يمثل أقصى (الجماعية) وهو مذهب «مزدك» الذي دعا إلى شيوعية الأموال والنساء، وتبعه كثير من الغوغاء، الذين عاثوا في الأرض فساداً، وضجت منهم البلاد والعباد.

وقد جاءت الأديان السماوية لتقيم التوازن في الحيـــاة، والقسط بين الناس، كما قرر ذلك القرآن الكريم[1]، ولكن أتباعها سرعان ما حرفوها وبدلوا كلمات الله، ففقدت بذلك وظيفتها في الحياة، حين فقدت مزيتها الأولى وهي: ربانية المصدر.

لهذا، لم تقدم الأديان السابقة قبل الإسلام حلاً لهذه المشكلة، فقد كان اليهود الذين تفرقوا في الأرض يؤيدون الفردية، بتفكيرهم وسلوكهم القائم على الأنانية: (وأخذهم الربا وقد نهوا عنه، وأكلهم أموال الناس بالباطل)[2]

---

(١) في قوله تعالى: (لقد أرسَلنا رُسلنا بالبينات وأنزلنا معهُم الكتابَ والميزانَ ليَقُوم الناسُ بالقِسْطِ). (الحديد: ٢٥).

(٢) النساء: ١٦١.

كما سجل عليهم القرآن العزيز.

وجاءت المسيحية أيضاً تهتم بنجاة الفرد قبل كل شيء، تاركة شأن المجتمع لقيصر، أو على الأقل، هذا ما يفهم من ظاهر ما يحكيه الإنجيل عن المسيح. حين قال: أعط ما لقيصر لقيصر، وما لله لله!!

وإذا طوينا كتاب التاريخ وتأملنا صفحات الواقع، فماذا نرى؟

إن عالمنا اليوم يقوم فيه صراع ضخم بين المذهب الفردي، والمذهب الجماعي. فالرأسمالية تقوم على تقديس الفردية، واعتبار الفرد هو المحور الأساسي، فهي تدلله باعطاء الحقوق الكثيرة، التي تكاد تكون مطلقة، فله حرية التملك، وحرية القول، وحرية التصرف، وحرية التمتع، ولو أدت هذه الحريات إلى إضرار نفسه، وإضرار غيره، ما دام يستعمل حقه في «الحرية الشخصية»، فهو يتملك المال بالاحتكار والحيل والربا، وينفقه في اللهو والخمر والفجور، ويمسكه عن الفقراء والمساكين والمعوزين، ولا سلطان لأحد عليه، لأنه «هو حر».

والمذاهب الاشتراكية - وبخاصة المتطرفة منها كالماركسية - تقوم على الحط من قيمة الفرد والتقليل من حقوقه، والإكثار من واجباته، واعتبار المجتمع هو الغاية، وهو الأصل. وما الأفراد إلا أجزاء أو تروس صغيرة في تلك «الآلة» الجبارة، التي هي المجتمع، والمجتمع في الحقيقة هو الدولة، والدولة في الحقيقة هي الحزب الحاكم، وإن شئت قلت: هي اللجنة العليا للحزب، وربما كانت هي زعيم الحزب فحسب، هي الدكتاتور!!

إن الفرد ليس له حق التملك إلا في بعض الأمتعة، والمنقولات، وليس له حق المعارضة، ولا حق التوجيه لسياسة بلده وأمته، وإذا حدثته عن نفسه بالنقد العلني أو الخفي، فإن السجون والمنافي وحبال المشانق له بالمرصاد!

ذلك هو شأن فلسفات البشر ومذاهب البشر، والديانات التي حرفها البشر، وموقفها من الفردية والجماعية، فماذا كان موقف الإسلام؟

لقد كان موقفه فريداً حقاً، لم يمل مع هؤلاء ولا هؤلاء، ولم يتطرف إلى اليمين ولا إلى اليسار.

إن شارع هذا الإسلام هو خالق هذا الإنسان، فمن المحال أن يشرع هذا الخالق من الأحكام والنظم ما يعطل فطرة الإنسان أو يصادمها. وقد خلقه سبحانه على طبيعة مزدوجة: فردية واجتماعية في آن واحد. فالفردية جزء أصيل في كيانه. ولهذا يحب ذاته، ويميل إلى إثباتها وإبرازها ويرغب في الاستقلال بشؤونه الخاصة.

ومع هذا نرى فيه نزعة فطرية إلى الاجتماع بغيره، ولهذا عد السجن الانفرادي عقوبة قاسية للإنسان، ولو كان يتمتع داخله بما لذ وطاب من الطعام والشراب.

والنظام الصالح هو الذي يراعي هذين الجانبين: الفردية والجماعية، ولا يطغى أحدهما على الآخر. فلا عجب أن جاء الإسلام ـ وهو دين الفطرة ـ نظاماً وسطاً عدلاً، لا يجور على الفرد لحساب المجتمع، ولا يحيف على المجتمع من أجل الفرد. لا يدلل الفرد بكثرة الحقوق التي تمنح له، ولا يرهقه بكثرة الواجبات التي تُلقى عليه. وإنما يكلفه من الواجبات في حدود وسعه، دون حرج ولا إعنات، ويقرر له من الحقوق ما يكافىء واجباته، ويلبي حاجته، ويحفظ كرامته، ويصون إنسانيته.

١ ـ من هنا قرر الإسلام حرمة الدم، فحفظ للفرد «حق الحياة»، وأعلن القرآن أن: (من قتل نَفساً بغير نفسٍ أو فسادٍ في الأرض، فكأنما قتل الناس جميعاً، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً)(١).

وأوجبت الشريعة في قتل العمد القصاص، إلا أن يعفو أولياء المقتول، أو يقبلوا بدلاً، وأوجبت في قتل الخطأ الدية والكفارة.

٢ ـ وقرر حرمة العرض، فصان للفرد «حق الكرامة» فلا يجوز أن يهان في

---

(١) المائدة: ٣٢.

حضرته، أو يؤذى في غيبته، بأي كلمة أو إشارة تسوؤه،: (يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قومٌ من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم، ولا نساءٌ من نساء عسى أن يكُن خيراً منهُن، ولا تلمِزوا أنفُسَكُم، ولا تنابزوا بالألقاب)[1]. (ولا يغتَب بعضُكُم بعضاً، أيحب أحدُكُم أن يأكلَ لحمَ أخيه ميتاً)[2].

٣ ـ وقرر حرمة المال، فصان للفرد «حق التملك» فلا يحل أخذ ماله إلا بطيب نفس منه، ولا يجوز للدولة، ولا لفرد آخر نهب ماله وأخذه بغير حق. قال النبي ـ ﷺ ـ في حجة الوداع: «إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا. في شهركم هذا، في بلدكم هذا»[3].

٤ ـ وقرر حرمة البيت، فصان بذلك للفرد «حق الاستقلال الشخصي» فلا يجوز لأحد أن يتجسس عليه، أو يقتحم عليه بيته بغير إذنه، قال تعالى: (ولا تدخلوا بُيوتاً غير بُيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها)[4] وقال: (ولا تجسسوا)[5].

٥ ـ وقرر للفرد «حرية الاعتقاد» فلا يجوز أن يكره على ترك دينه، واعتناق دين آخر: (لا إكراه في الدين، قد تبين الرشدُ من الغي)[6]. (أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين)[7].

٦ ـ وقرر للفرد «حرية النقد» فمن حق كل فرد أن يعارض ما يراه من عوج، وما يلاحظه من تقصير، بل من واجبه ذلك إذا لم يقم غيره به، وهو ما سماه الإسلام «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر».

---

(١) الحجرات: ١١.
(٢) الحجرات: ١٢.
(٣) رواه مسلم.
(٤) النور: ٢٧.
(٥) الحجرات: ١٢.
(٦) البقرة: ٢٥٦.
(٧) يونس: ٩٩.

٧ - وقرر «حريـة الرأي والفكر» فمن حق كل إنسان، بل من واجبه أن يفكر وينظر. فقد أمر الإسلام الناس أن يتفكروا. وما دام التفكير حقاً - أو واجباً - لكل بشر، فمن حق كل مفكر أن يخطىء، ولا لوم عليه في ذلك. إن الإسلام لا يحرم المجتهد من المثوبة والأجر، وإن أخطأ إصابة الحقيقة. ففي الحديث «المجتهد إذا أخطأ فله أجر، وإن أصاب فله أجران»(١).

وليس في الدنيا دين ولا نظام يشجع على استعمال الفكر، ويرحب بنتائجه - أياً كانت - مثل هذا الإسلام، الذي يثيب على الاجتهاد الخطأ.

ثم تتعايش هذه الأفكار والاجتهادات المختلفة جنباً إلى جنب، دون ضيق ولا تبرم، كما رأينا ذلك في عهد الصحابة ومن تبعهم بإحسان.

وفي ظل هذه الحرية الفكرية ظهرت المدارس والمشارب المختلفة: في الفقه، والتفسير، والكلام وغيرها، من غير نكير، إلا ما توجبه المناقشة العلمية.

٨ - وقرر الإسلام «المسئولية الفردية». وأكدها تأكيداً بليغاً في كتابه فقال تعالى: (كل نَفس بما كَسَبت رهينة)(٢). «لها ما كَسَبَت وعليها ما اكتسبت)(٣). «ولاَ تَزِرُ وازرَة وِزْرَ أُخرى)(٤).

وهذه الآيات تطبق على الإنسان في الدنيا وفي الآخرة، فهو في الحياتين لا يحمل وزر غيره.

ومع هذه الحقوق والحريات التي منحها الإسلام للفرد، فقد فرض عليه للمجتمع واجبات تكافئها، وقيد هذه الحقوق والحريات الفردية، بأن تكون في حدود مصلحة الجماعة، وألا يكون فيها مضرة للغير، وليس للفرد أن

(١) متفق عليه.
(٢) المدثر: ٣٨.
(٣) البقرة: ٢٨٦.
(٤) الإسراء: ١٥.

يستخدم حقه فيما يؤذي الجماعة ويضرها، إذ لا ضَرر ولا ضِرار في الإسلام، أي: لا يضر الإنسان نفسه ولا يضار غيره. كما أن حق الفرد إذا تعارض مع حقوق الجماعة، فإن حق الجماعة أولى بالتقديم.

(أ) فالحياة التي صانها الإسلام للفرد، إذا اقتضى المجتمع المسلم بذلها لحمايته وجب عليه أن يقدمها راضي النفس، قرير العين، معتقداً أن الموت هنا هو عين الحياة، وكذلك إذا اعتدى على حق نفس أخرى كقاتل العمد، أو على حق المجتمع في الأمن والاستقرار، كقاطع الطريق. أو خرج على دينه وفارق الجماعة كالمرتد ـ فقدت حياته مالها من عصمة.

(ب) حق التملك مقيد بأن يأخذ المال من حله، وينفقه في محله، ولا يبخل به إذا طلبته الجماعة، فملكية الفرد للمال ليست مطلقة كما ينادي أنصار «المذهب الحر»، بل هي مقيدة بحدود الله وحقوق المجتمع، حتى إن انتزاع هذا الملك من صاحبه يجوز للمصلحة العامة، على أن يعوض عنه ثمن المثل، ذلك أن المال مال الله، وهو مستخلف فيه، وبعبارة أخرى: هو وكيل الجماعة في رعايته وتثميره وإنفاقه، فإذا أساء التصرف في المال، كان من حق الجماعة أن تغل يده، وتحجر عليه، كما أن للجماعة عليه حقوقاً في هذا المال، بعضها دوري ثابت كالزكاة بأنواعها، وبعضها غير دوري، كما في الحديث: «إن في المال حقاً سوى الزكاة»[1]، وبعضها يفرضه ولي الأمر عند الحاجة.

(ج) والحريات والحقوق كلها مقيدة برعاية أخلاق المجتمع وعقائده ومثله العليا، فليس معنى حرية الاعتقاد أو الرأي، إباحة الطعن على الإسلام وأهله، وإذاعة الكفر بالله ورسوله وكتابه، والتشكيك في القيم العليا، ونشر الخلاعة والفجور، فإن حرية الإفساد لا يقرها عقل ولا شرع.

(د) المسؤولية الفردية التي أكدها الإسلام، نراه قد أكد كذلك مسؤولية الفرد عن الجماعة، فكل فرد في المجتمع المسلم راع في مجال من المجالات، كما في

(١) رواه الترمذي وابن ماجه.

الحديث الصحيح: «كلكم راعٍ وكلكم مسئول عن رعيته»[1] فكما أن الإمام راع مسئول عن الأمة فإن الرجل في بيته راع مسئول عن الاسرة، والمرأة راعية في بيت زوجها، والخادم راع في مال مخدومة، وكل على ثغر الإسلام، فلا يجوز له إهمالها.. وفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، تقتضي مسئولية المسلم عن المجتمع، وتوجب عليه مراقبة أحواله، وتقويم عوجه إن اعوج بكل ما استطاع، بيده أولاً، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه: وذلك أضعف الإيمان.

إن النصيحة لكافة المسلمين خاصتهم وعامتهم، ركن ركين من الإسلام، ومن لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم.

وليس لمسلم أن يعتزل الحياة والناس ويقول: نفسي نفسي! ويدع نار الفساد تلتهم الأخضر واليابس من حوله، فإن هذه النار إذا تركت وشأنها، لم تلبث أن تحرقه هو، وتحرق كل ما يحرص عليه. ولهذا يقول القرآن: (واتقوا فِتنة لا تُصِيبَن الذين ظلموا مِنكُم خاصة، واعلموا أن الله شديد العقاب)[2] وفي الحديث: «إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده».

(هـ) ومن معاني الجماعة في الإسلام ما عرف في الشريعة باسم «فروض الكفاية» فكل علم أو صناعة أو حرفة أو نظام أو مؤسسة، تحتاج إليها الجماعة المسلمة في دينها أو دنياها. فتحقيقها فرض كفاية على المسلمين، على معنى أنه إذا قام بها عدد كاف فقد ارتفع الحرج، وسقط الإثم عن باقي الجماعة، وإلا أثمت الجماعة كلها، واستحقت عقوبة الله.

(و) المسلمون مسئولون مسئولية تضامنية عن تنفيذ شريعة الإسلام، وإقامة حدوده، ومن هنا كان خطاب التكليف في القرآن إلى الجماعة. وتكرر قوله تعالى: (يأيها الذين آمنوا)[3]. بهذه الصيغة الجماعية ليؤكد وجوب التكافل

---

(١) متفق عليه من حديث ابن عمر.

(٢) الأنفال: ٢٥.

(٣) ذكر هذا النداء في القرآن كثيراً.

بين الجماعة في تنفيذ ما أمر الله به، واجتناب ما نهى عنه. خوطبت الجماعة كلها بمثل قوله تعالى: (والسارق والسارقة فاقطعوا أيديَهُما)[1]. (الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مئة جلدة)[2]، وإن كان الذي يقوم على هذه الحدود هو الدولة والحكام، لأن الجماعة كلها مسئولة عن إقامتها، مؤاخذة بعقاب الله إذا عطلتها.

(ز) حتى العبادة التي هي صلة بين العبد وربه، أبى الإسلام، إلا أن يُضفي عليها روحاً جماعية، وصبغة جماعية، فدعا إلى صلاة الجماعة ورغب فيها، حتى جعلها أفضل من صلاة المسلم وحده، بسبع وعشرين درجة، وكلما كان عدد الجماعة أكبر، كان ثواب الله عليها أعظم. بل هم الرسول أن يحرق على قوم بيوتهم، لتخلفهم عن الجماعة في المسجد، ولم يرخص لأعمى، يسمع الأذان، أن يصلي في بيته ويترك صلاة الجماعة، وقال: «لا صلاة لمنفرد خلف الصف»[3] كراهية منه للشذوذ والانفراد، ولو في المظهر. وإذا صلى المسلم منفرداً في خلوة لم تزل الجماعة في وجدانه وضميره، فهو إذا ناجى الله ناجاه بصيغة الجمع، وإذا دعاه دعاه باسم الجميع: (إياك نعبد وإياك نستعين. اهدنا الصراط المستقيم)[4].

كما شرع صلاة الجمعة في كل أسبوع مرة، وصلاة العيد في كل عام مرتين، وفرض الحج في العمر مرة على كل مسلم. وكلها شعائر لا بد أن تؤدى في صورة جماعية.

(ح) في مجال الآداب والتقاليد، حث الإسلام على جملة من الآداب الاجتماعية، أراد بها أن يخرج المسلم من الفردية والانعزالية، التي قد تروق للانطوائيين من الناس، فتحية الإسلام، والمصافحة عند اللقاء، وتشميت العاطس، والتزاور والتهادي، وعيادة المريض، وتعزية المصاب، وصلة الأرحام، وإحسان الجوار،

---

(١) المائدة: ٣٨.
(٢) النور: ٢.
(٣) رواه أبو داوود.
(٤) الفاتحة: ٥، ٦.

وإكرام الضيف، وحسن الصحبة في السفر والحضر، والبر باليتامى والمساكين وابن السبيل، وغير ذلك من الآداب والواجبات، هي التي جعلت الشعور الجماعي، والتفكير الجماعي، والسلوك الجماعي، جزءاً لا يتجزأ من حياة المسلم.

(ط) وفي مجال الأخلاق، حث الإسلام على المحبة والإخاء والإيثار، وأمر بالتعاون على البر والتقوى، ودعا إلى توحيد الكلمة وجمع الصف، كما دعا إلى التراحم والتسامح، وإلى البذل والتضحية، واحترام النظام، والطاعة لأولي الأمر في المعروف.

وبجوار ذلك حذر من الحسد والبغضاء والحقد، والفرقة والتنازع. وسائر الرذائل التي تنشأ من الأنانية والغلو في حب الذات، وحب الشهوات.

وبهذا كله، نعلم كيف أقام الإسلام ـ بالتشريع والتربية ـ الموازين القسط بين الفرد والمجتمع، أو بين الفردية والجماعية في حياة الإنسان. كما نتبين أن نظام الإسلام لا يعد في المذاهب الفردية، كما لا يحسب في المذاهب الجماعية، ذلك لأنه أخذ من كل منهما خير ما فيه، كما تنزه عن شر ما فيه، فقد اعترف بالفرد وبالمجتمع، وقرر لكل منهما حقوقه بالعدل، وألزمه واجبات تقابلها بالمعروف. وهذه هي الوسطية، وإن شئت قلت: هو التوازن الذي اختص به هذا الإسلام.

★ ★ ★